كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.م.د. نهاد فخري محمود

اسم المادة بالغة العربية : النقد القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Old Criticism

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: الفكر النقدي عند الجاحظ

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية :Al-Jahidh's critical thought

مقرر الفصل الأول

الفكر النقدي عند الجاحظ

تعريف بالجاحظ:

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٠ هـ – ٢٥٥ هـ) أشهر أدباء القرن الثالث الهجري وأغزرهم نتاجًا، ألَّف كتبًا ورسائل في مجالات شتى فكرية وأدبية واجتماعية، كان أديبًا موسوعيًا نهل الثقافة العربية القديمة. مال في نتاجه الى العقل الذي يعدُّ وسيلةً في الإقناع والمجادلة، فمنهج الجاحظ هو منهج المعتزلة، لكنه ميز علماءها بأسلوبه الأدبي الجميل وعباراته الفصيحة الرصينة، وطريقة عرضه للقضايا الأدبية، مما جعل مؤلفاته قريبةً من العامة والخاصة. انماز أسلوبه في الكتابة بميزتين، أولهما: الاستطراد، ثانيهما: مزج الجد بالهزل.

أولاً: الناقد من وجهة نظره

فيما يتعلق بموقفه من الناقد، فقد وردت إشارة في كتاب العمدة، تفيد أنَّ الجاحظ حدد مستلزمات الناقد عندما تحدَّث عن الأدباء والكتَّاب قائلًا: (طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت الى الأخفش، فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة، فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار، وتعلَّق بالأيام، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتَّاب كالحسن بن وهب، ومحمد بن عبدالملك الزيات).

فتقدير الجاحظ لهم ليس لتفننهم في الصياغة والتعبير، بل حديثه عن إحاطتهم بالعلوم المتعلقة بالشعر لغته وغريبه وإعرابه، وتاريخ الشعر وقبائلهم، فهذه كلُّها متوفرة عند الكتَّاب، وهم الذين وجد عندهم علم الشعر، وهم المؤهلون إذن للنقد، فعندما بحث عن علم الشعر عند العلماء الآخرين لم يجد ضالته، فالأصمعي في علم اللغة، وأبو عبيدة في أخبار الشعراء

وقبائلهم، والأخفش في اللغة وإعرابها، وهذه العلوم لا تؤهل صاحبها للنقد، وأما الأدباء فقد جمعوا في ثقافتهم كل علوم الشعر ومعانيه، فضلًا عن الإلمام بجوهر الشعر وتذوقه وتحسس مواطن الجمال فيه كالطبع المتمكن أو السبك الجيِّد والديباجة الكريمة وحسن المعاني وكل ما يتعلق بالنص الشعري.

ثانيا / موقفه من الألفاظ والمعاني

يعدُّ الجاحظ من أوائل من لفت الانتباه إلى البحث عن سرِّ الإجادة في النص الأدبي، فأخذ يطرح تساؤلات عن مواطن الجودة هل هي في الألفاظ أم في المعاني، فقال:(المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنَّما الشأن في إقامة الوزن وتخيِّر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير). لقد توهَّم كثير من الباحثين في فهم رأي الجاحظ هذا مكتفين بالجملة الأولى من كلامه (المعاني مطروحة) ليستنتجوا أنَّ الجاحظ من أنصار اللفظ على المعاني، وأنَّه شكَّل مدرسة نقدية كان من آثارها أبو هلال العسكري.

وهذا الدكتور بدوي طبانة يصنف رأي الجاحظ قائلًا: (إنَّ هذا الشطط الذي لم يقده إليه إلا تعلقه بمذهب الصنعة هذا التعلق الذي أعماه عن تقدير المعنى، وليست منزلة المعنى دون منزلة اللفظ في تقدير القيمة الفنية للعمل الأدبي).

رأى باحثون أنَّ الجاحظ لم يعن بالألفاظ مفردة، وإنما عنى بالصياغة والأسلوب، وأنَّه أول من نادى بهذا المذهب مذهب الصنعة والافتتان بالصياغة. وخلص الدكتور العشماوي إلى أنَّ عبارة الجاحظ (على شهرتها وكثرة تداولها، بل وتأثيرها الشديد فيمن جاؤوا بعده من نقاد فيها غموض واضح، فهي لم تحدد التحديد الصحيح لمفهوم المعنى عند الجاحظ، وفصلت تفصيلًا عامًا بين المعنى واللفظ)

المتأمل جيدًا في مقولة الجاحظ، يتبادر إلى ذهنه أنَّه من أنصار اللفظ على المعنى، إلا أنَّ آراءه الأخرى تدلنا على أنَّه لم يكن من أنصار الألفاظ على المعاني، ولا من الذين عنوا بالصياغة والأسلوب فحسب، كما أنَّه لم يفصل بين الألفاظ والمعاني بتحديد مفهوم المعنى عنده، بل عنى بالنص الأدبي بكل ما يحمله من معان عبَّر عنها بألفاظ وأساليب وأوزان. فالنص الأدبي الجيِّد هو ما كانت أفكاره ومعانيه جيدة مقبولة في النفس، وكان أسلوبه جميلًا مؤثرًا، وإذا انفرد بإحدى هاتين الميزتين من دون الأخرى أصابه الخلل وخرج عن إطار النجاح الفني – وآية ذلك– أنَّ الجاحظ أراد بقوله: "المعاني مطروحة في الطريق " إلفات الانتباه الى أنَّ النظر الى ما يحمله البيت الشعري من حكمةٍ أو موعظةٍ والاكتفاء بها لتقويم البيت هو نظر قاصر؛ لأنَّه يريد للمعنى الجيِّد أن يخرج بإطار أدبي جميل مؤثر، بدليل ما بدر منه عندما استهجن بيتين من الشعر نالا إعجاب أبي عمرو الشيباني قائلًا: " وأنا أزعم أنَّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعرًا أبدًا والبيتان هما:

لا تَحْسَبَنَّ المَوْتَ مَوْتَ البِلَى ... وإنّما الموتُ سُؤالُ الرِّجال

كِلاهمَا مَوتٌ، ولكنَّ ذَا ... أشدُّ مِنْ ذاكَ لِذُلِّ السُّؤالْ

وذكر رأيه بعد هذين البيتين مدرجًا عناصر النص الأدبي، بما يمكن أن نختصره بالآتي:

١–إقامة الوزن: أي اختيار الأوزان المناسبة للمعاني المطروحة.

٢–تخيّر اللفظ وسهولة المخرج.

٣–كثرة الماء وصحة الطبع: ويريد بهما ابتعاد الشعراء عن الجفاف والافتعال المصطنع.

قرن الجاحظ هذه العناصر الثلاثة معًا في أكثر من موضوع في كتبه، فقال: " فإن كان المعنى شريفًا، واللفظ بليغًا، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة..."

إنَّ تشبيه تأثير النص في نفس المستمع المتذوق للأدب بتأثير المطر إذا أصاب تربةً كريمةً تشبيه يدلك على إدراك الجاحظ لأهمية الطبع والموهبة في عملية الإبداع الفني من ناحية، ويشير الى التفاتته الى نفسية المستمع الذي يجب أن يكون مؤهلًا لفهم النص وتقديره فيلقى في نفسه قبولاً واستحساناً وإلا فإنَّه يكون كالتربة الميتة لا يجدي فيها هطول المطر.

وقال في مواطن آخر: " والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة تحولت في العيون عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت وعلى حسب ما زخرفت... فالقصد في ذلك أن تجتنب السوقي والوحشي، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني وفي الاقتصاد بلاغ وفي التوسط مجانبة الوعورة".

نخلص إلى القول إنَّ الجاحظ لم يعن بالألفاظ من دون المعاني، بل أراد تنبيه الشعراء إلى ضرورة إضفاء الصبغة الجمالية إلى أشعارهم وأن لا يجعلوها جافةً مفتقرةً على أوصاف محددة، بل يتوجب أن تكون مستوفية الفكرة لها تأثيرها في المتلقي.